بين الأدب والأخلاق :

الصداقة فى رأى ابن المقفع

للشيخ محمد رجب البيومى

(ومن المعونة على تسلية الهموم وسكون النفس لقاء الأخ أخاه ، وإفضاء كل واحد منهما إلى صاحبه بثه ، وإذا فرق بين الأليف وأليفه فقد سلب قراره وحرم سروره ، وعشى بصره)
« ابن المقفع »

بينى وبين ابن المقفع صداقة أعتز بها كل الاعتزاز ، فقد كان أول كاتب تثقفت بأدبه فى العربية ، ولا أزال أذكر قصصه الشائقة الممتعة التى قرأتها فى كتابه الخالد « كليلة ودمنة » وكنت حينئذ لا أتجاوز العاشرة ، ولكنه كان يجذبنى — بوضوحه المشرق — إلى متابعته دون سآمة أو ملال ، وكنت أستوعب رواثعه فى لذة وشغف ، فإذا ما خلوت إلى الناس كانت محور السمر ، وأداة الحديث ، ومهما يكن من شىء فقد جعلتنى أعتبر ابن المقفع — فى سن الطفولة — نادرة الكتاب ، وأستاذ البلغاء . وما زلت أنظر إلى الرجل هذه النظرة العالية حتى اليوم ، فلا غرو إذا تحدثت عنه حديث الدارس المستوعب ، فغير كثير عليه أن تسطر فى أدبه الصحائف ، وتهتم بآثره الأقلام !!

مطالعته وإخوته وأخوانه الكبار يتصفحون كتبهم المدرسية بغير اشتياق أو عناية .

ولذا نرى أن البيت والمدرسة مسئولان إلى حد كبير عن هذا الكره ، والحل يتطلب تغيرا أساسيا فى المدرسة وفى حياة الطلبة لكى يتهيأ لهم الجو الذى يحببهم فى القراءة ويجعلها عادة فيهم . والحاجة ماسة إلى بيئة منزلية تعينهم على تعهد هذه العادة حتى لا تنقرض أو تضعف .

ايليا حليم حنا
دبلوم عال فى التربية
الأبيض — السودان

وقد لاحظت أن أديبنا الكبير قد أكثر من الحديث عن الصداقة إكثاراً يدعو إلى الدهشة والعجب ، فما يكاد فصل واحد من كتابته يخلو من التصريح أو التلميح بما يشتجر فى نفسه من العواطف الإنسية الرفيعة ، مما دفعنى إلى التنقيب فى حياة الكاتب ، ودراسة تاريخه دراسة فاحصة .

وقد اتضح لى أن عبد الله كان صديقاً وفياً لصفوة مختارة من الأدباء والشعراء ، فكان يقضى الأمسيات الضاحكة فى سمر ممتع لذيذ ، فإذا عاقته ظروفه — يوماً ما — عن منتدى أصفيائه حن إليهم حنيناً ينبىء عن وفائه وولائه ، وقام يراعه البليغ بالتعبير عن عواطفه النبيلة فنفث السحر ، وأدار السلاف ! ...

وقد تحدث كثير من الكتاب عن الصداقة والأصدقاء ، فما وجدت لأحاديثهم جاذبية تدفعنى إلى التعليق عليها ، وما شعرت بارتياح تام إلى تحليلها وتشريحها ، لأن جل هؤلاء فى الواقع يقولون ما لا يفعلون ، فهم يسهبون فى الحديث عن الوفاء والتسامح والإيثار ، فإذا رجع الباحث إلى تواريخهم المظلمة ، وجدها تنطق بالغدر والحقد والكيد .

أما أديبنا الحكيم فذو تاريخ نبيل مجيد ، تقرأه فتخفض رأسك إجلالاً لصاحبه وتتساءل — كما أتساءل الآن — عن هذا الذى ملك عواطفه ، وحكم مشاعره ، فلم يخضع يوماً إلى منطق الحقد ، ولم تتخطفه نوازع الهوى ، بل سار فى مهيع لاحب مستقيم تحدوه الكرامة والعزة ويرفرف عليه ظل وارف من النبل والوفاء .

وإذا كانت حياة الإنسان أعز شىء لديه ، ثم يليها فى المرتبة ما يملك من مال وعتاد ، فإن ابن المقفع قد نظر إلى حياته وماله نظرة هينة رخيصة ، فذكر أكثر من مرة أن التضحية بالنفس والمال أقل ما يجد على الإنسان نحو صديقه الأمين ، ونحن نسمع هذا الكلام من كل كاتب ، ولكن عبد الله لا يسطر الرأى إلا بعد أن يعتقده ويقوم بتنفيذه دون تردد وإحجام ، فقد شاء القدر العنيد أن يمتحنه أمام الناس ، ليظهر فى ثوبه الشفاف ، ولقد انتهى الامتحان الرهيب بنجاح ابن المقفع وانتصاره فى ميدان الكرامة أبهر انتصار .

كان عبد الله صديقاً حميماً لعبد الحميد الكاتب ، فقد تراسلا

حقبة من الدهر ، وأعجب كلا الرجلين بصاحبه إعجاباً زائداً ، وحين عصفت رياح الزمن بالدولة الأموية ، وهب العباسيون يتعقبون أولياءها فى كل مكان .

فر عبد الحميد إلى صديقه واختبأ فى بيته مدة كان فيها موضع التكريم والإكبار ، وشاء طالعه الأشأم أن يقف أرباب السوء على مكانه ، فأبلغوا الخبر فى أسرع من البرق إلى الخليفة السفاح وفاجأه الطلب الصاعق فى منزل ابن المقفع فقال رسول الخليفة للصديقين : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما « أنا » ، خوفاً على صاحبه ، وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع لولا أن صاح بهم عبد الحميد ، قائلا : ترفقوا بنا ، فلكل منا علامات يعرف بها أنه تعريف ، فوكلوا بنا بعضكم ، وليمض البعض الآخر إلى من وجهكم فيذكر له تلك العلامات ، ففعلوا كما أشار ، وانضح لهم عبد الحميد فقتلوه ! !

فهذه الحادثة وحدها كافية لإثبات رجولة ابن المقفع ، وهى تدل دلالة ناطقة ، على أن الرجل يتقيد بما يوجبه على غيره من حقوق الصداقة والوفاء . وناهيك بمن يبذل نفسه تضحية رخيصة فى سبيل صديقه ، وكما قيل : الجود بالنفس أقصى غاية الجود ! !

وبديهى أن الذى يقدم نفسه ضحية لصاحبه ، لا يتردد لحظة فى إنفاق ماله عليه ، ولقد كان عبد الله فى سعة من الخير ، ورفاهية من العيش ، وكم بذل من الثروات الطائلة فى سبيل أصدقائه ومعارفه ، وأخباره فى هذا الباب لا تندرج تحت حصر ، ويكفى أن نذكر على سبيل المثال موقفه مع صديقه « عمارة بن حمزة » وهو كعبد الله كاتب أديب ، وقد كان عاملا لأبى جعفر المنصور على الكوفة ، وكان ابن المقفع إذ ذاك بها .

فبينما هو ذات يوم عنده ورد على عمارة كتاب وكيله بالبصرة ، يعلمه أن ضيعة جوار ضيعته تباع وأن ضيعته لا تصلح إن ملكها غيره ، وثمنها ثلاثون ألف درهم ، فقرأ عمارة الكتاب وقال : ما أعجب هذا ! ! وكيلنا يشير علينا بالابتياع ، ونحن فى جدب وإملاق ، ثم كتب يأمره ببيع ضيعته والتوجه حثيثاً إليه ، وسمع عبد الله الحديث فقام إلى بيته وكتب إلى الوكيل على لسان عمارة ، « أما بعد فقد كنت أمرتك ببيع الضيعة ثم حضر لى مال فلا تبعها واشتر الضيعة الأخرى وهاك ثمنها » ففعل الوكيل ما أراد ، وجاء الخبر إلى عمارة ، فأخذه العجب من ذوق ابن المقفع كل مأخذ ، ثم قال له مداعباً : بعثت بثلاثين ألف درهم إلى الوكيل ، وكنا فى حاجة إليها ؟ فقال له من فوره : وإن عندنا لفضلا ، وبعث إليه بثلاثين ألفاً أخرى » ؛ فهل ترى بعد ذلك صديقاً كعبد الله يدفع عن أصفيائه الغوائل بنفسه وماله ؟ وهل يليق بنا أن نثقل حديثه عن الصداقة بعد أن ضحى فى سبيلها بأكثر من الواجب وجعل نفسه المثل الأعلى للصديق النبيل !

ومهما اختلفت الآراء فى الصديق ، فقد كان الأديب الحكيم يرفعه إلى منزلة عالية ويضعه فى مرتبة فوق مرتبة الشقيق ، وكثيراً ما عقد بينهما موازنة طريفة تنتهى بتفضيل الصديق عمن عداه . ولقد قال له بعض الناس أما بالصديق آنس منى بالأخ ، فعرف السرور فى وجهه ، وابرى يدلل على صحة ما سمع ، فقال لصاحبه : صدقت ، فالصديق نسيب الروح ، والشقيق نسيب الجسم !! وكثير من الحكماء يؤيدون الكاتب فى دعواه بل ربما يسرفون إسرافاً يميل بهم إلى التحامل على القرابة بدون موجب . ومنهم من يقتصد فى حكمه اقتصاداً لا يخرج به عن الإنصاف ، فقد قيل لبزرجمهر ، من أحب إليك ؟ أخوك أم صديقك ، فقال ما أحب أخى إلا إذا كان صديقى . وقال أكثم بن صيفى : القرابة تحتاج إلى مودة ، والمودة لا تحتاج إلى قرابة .

وينبغى ألا نغفل عن حقيقة ملموسة ، وهى أن ابن المقفع ومن سار معه فى طريقه ، لم يضطروا إلى الموازنة بين الصديق والشقيق إلى حين وقرت فى نفوسهم منزلة الأخ .

وعجزوا أن يحولوا عنها الأنظار ، فكان كل همهم أن يعارضوها بمنزلة الصديق ، وهيهات أن يبلغوا ما يريدون ؟ فالأخوة رباط ربانى صنعته يد الخالق ، والصداقة رباط إنسانى عقدته يد المخلوق ، وإنما كثر التحامل على الأخ والتشهير به أكثر من الصديق ، لأن الشقيق مظنة الإيثار والعطف ، فكل هفوة تصدر منه فهى كثيرة الكبائر وأم الذنوب[1] .

أما الصديق فهما سمت منزلته فلن تستغرب منه الهفوات لأنه

(١) تناظرت منذ عامين فى الفاضلة بين الصديق والأخ وكان يؤيدنى فى الرأى أخى الأستاذ محرز أحمد حقابى ، ويعارضنى فيه صديقى الأستاذ أمين عبد البر على .

بوضعه الطبيعى أجنبى بعيد ، ومن هنا سكت عنه اللاغون — إلى حد ما — واتجهوا باللائمة القارصة على الأخ الشقيق !

وما نقوله فى المفاضلة بين الصديق والشقيق نقوله أيضاً فى الموازنة بين الصديق والعشيق ، فقد طاب لبعض الناس أن يرفعوا الصديق إلى منزلة العشيق فقال الحسن بن وهب : غزل الصداقة أرق من غزل الملاقة .

وقال آخر : النفس بالصديق آنس منهـا بالعشيق ، وأمثال هذه الأقوال قد تجد جانباً من الرواج لدى العاطفيين البله ، ولكنها تتبخر أمام التحليل النفسى العميق ، فالعشيق فى مرتبة دونها الصديق والشقيق معا ، فـكيف نفهم هذا الـكلام العجيب ؟ ولقد خدع الشريف الرضى نفسه بهذه الأقوال المرتجلة ، فانبرى يقول فى صديقه ما لا يقال فى غـير العشيق ، ولا أدرى كيف تقبل منه صديقه الأديب الشاعر أبو الحسن البتى قصيدته التى يقول فيها بدون مبالاة .

أغار عليك من خلوات غيرى كما غار المحب على الحبيب
ولى شـوق إليك أعـل قلبى ومالى غـير قربك من طبيب
أكاد أراب فيك إذا التقينا من الألحـاظ والنظر الريب

وهى قصيدة طويلة تتجلى فيهـا غفلة الشريف إلى حد ما ، وله من صفاء نفسـه ورقة قلبه شفيع أى شفيع ، ولعل من الأدباء من يوافق مذهبه كل الموافقة ، وإن كنت وإياه على طرفى نقيض!

وإذ كان الصديق فى رأى ابن المقفع مفضلا على النفس والشقيق ، فانه ينصح دائما بالتؤدة فى اختياره ، ويدعو إلى التريث الزائد فى اصطفاء الأصحاب ، وكأنى به وقد أدرك ما فى الطبائع الإنسانية من لؤم وغدر ، فحرص على الامتحان العنيف حتى يتميز الخبيث من الطيب ، فلا يختار العاقل غير من كان فى درجة عالية من الـكمال ، ليكون أهلا للفداء والتضحية من أجله إذا دعت الحال . وقد يسرف الـكاتب فى الحيطة والتؤدة اسرافا يدعو إلى التملص من الصداقة بادىء ذى بدء ، فهو يقول « إذا أقبل إليك مقبل فسرك ألا يدبر عنك فلا تنعم الإقبال عليه والتفتح له ، فإن الانسان طبع على ضرائب لؤم ، فن شأنه أن يرحل عمن لصق به ، ويلصق بمن رحل عنه ، إلا من حفظ بالأدب نفسه وكابر طبعه » وهذه الحيطة فى البداية مقبولة معقولة ، لا سيما وابن المقفع يرى أن الصداقة « زواج كاثوليكى » لا انفصام له ، وهو لا يرى خلة أبشع من الهجرة والجفـاء . ويعجبنى جدا قوله فى هذا السياق ، « واعلم أنه لا سبيل لك فى مقاطعة أخيك ، وإن ظهر لك منه ما تكره ، فإنه ليس كالمملوك الذى تعتقه متى شئت ، أو كالمرأة التى تطلقها إذا شئت ، ولـكنه عرضك ومروءتك وشرفك ، وإنما مروءة الرجل إخوانه وأخواته ، فإن عثر الناس على أنك قطعت رجلا من إخوانك ، — وإن كنت معذراً — نزل ذلك عند أكثرهم بمنزلة الخيانة للاخاء ، والملال فيه ، وإن أنت مع ذلك تصبرت على مقارنة غير الرضى عاد ذلك إلى العيب والنقيصة ، فالاتئاد الاتئاد والتثبت التثبت !! » .

ولا يقتصر الحـكيم الفارسى على ابداء رأيه فى هذا الموضوع بل يلجأ إلى الافتراض والتمثيل ، ومع أنه لا يمل الإطناب فى القول فان حرصه على تدعيم رأيه ، يلجئه إلى الاسهاب والتكرار ، ولا ينسى أن يضرب الأمثلة التطبيقية ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة . وفى كتاب كليلة ودمنة[1] أقاصيص عديدة تدور حول هذه النقطة الهامة ، وما أبرع عبد الله حين يقنعك بأقصوصة فرضية يختلقها اختلاقا ، فتقوم مقام ألف دليل ، وتغنى غناء تاما عن التحليل والتأويل ؛ واليك المثال .

قال الـكاتب « إذا استضافك ضيف ساعة من نهار وأنت لا تعرف أخلاقه فلا تأمنه على نفسك » وهذا رأيه السالف فى الاحتراس من الناس ، ولـكنه يتبعه بمثال فرضى يقطع به كل اعتراض ، فيقول بعد ذلك « ولا تأمن أن يصلك من ضيفك أو بسببه ما أصاب القملة من البرغوث » ثم يسرد فى إيجاز قصة وهمية عن قملة استضافت برغوثا دون أن تعرفه ، وأسكنته فى فراش نائم سمين ثم أوصته أن يتريث فلا يلدغ النائم قبل أن يتأكد من رقاده ، ولـكن الضيف الأحمق يتسرع فيلدغ الرجل ويهب من فراشه مذعوراً ليبحث عن الجانى فيطير البرغوث ، وتصدع القملة بجريرة ضيفها الأثيم » فأى عاقل يسمع هذا المثال الحـكيم ثم لا يجعل آراء ابن المقفع دستوراً حكيما يطبقه على نفسه

(١) يؤكد ثقاة الباحثين أن عبد الله بن المقفع قد أملى كتاب كليلة ودمنة من خاطره ثم نسبه إلى غيره ، ونحن نتمسك بهذا الرأى الصحيح ، وليت شعرى من بيدبا ؟ ومن دبشليم !!

فيتشدد تشددا تاما فى اختيار الرفيق .

وقد يفهم القارىء من آراء ابن المقفع أنه يدعو إلى التؤدة والتريث مع كل إنسان وهذا ما يتضح جليا مما قدمناه ؛ ولكن يخيل الينا أن هناك فرقا بين إنسان ربطتك به جامعة أو إدارة أو بلد ، فلم يصل إلى سمعك من أخباره ما يسوّد صحيفته ، ويسىء سمعته ، وبين انسان نجم أمامك فجأة فلم تعلم عنه مايزين أو يشين ؛ فالمبالغة فى الحيطة مع الأول قد تكون تمنتا لامبرر له ، ومع الثانى يجد ما يسوغها بل يفرضها فرضا لازما على كل عاقل . ولقد أبدع الكاتب حين أسهب فى الحديث عن صداقة الجرذ والغراب ، فقد اطلع القارىء على ما يجب عليه من التريث التام فى قبول الصديق يادىء ذى بدء ، حيث صور الغراب فى صورة مستكينة ذليلة وقد وقف أمام الجرذ يخطب وده ويرغب فى مصاحبته ؛ وهنا يبرز عبد الله حيطة الجرذ ناطقة فى قوله للغراب ، « ليس بينى وبينك تواصل ، وإنما العاقل ينبغى أن يلتمس ما يجد اليه سبيلا ، ويترك التماس ما ليس اليه سبيل ، فإنما أنت الآكل وأنا طعام لك » ويطنب أديبنا الحكيم فى هذا المعنى فيقول مرة ثانية على لسان الجرذ « إن المداوة التى بيننا ليست تضرك وإنما ضررها عائد على ؛ وإن الماء لو أطيل إسخانه لم يمنعه من إطفاء النار إذا صب عليها . وإنما مصاحب العدو ومصالحه كصاحب الحية يحملها فى كمه . والعاقل لا يستأنس إلى العدو الأريب » وما أظن بعد ذلك تهذيبا لمهذب وإرشادا لمسترشد . ويجدر بنا أن نشير إلى أن ابن المقفع قد اختار الجرذ والغراب بالذات ليمحو ما قد وقر فى بعض الأذهان من أن المداوة إذا وقرت فى القلب لا تمحى منه ، فهو يريد أن الإنسان بكياسته وحزمه قادر على أن يخلق من عدوه صديقا مهما تغلغلت جذور البغضاء فى قلبه ، وهذه دعوة سافرة إلى التسامح الإنسانى والرجوع إلى مبادى الاخاء والتواد ، فالمرء لا محالة مدنى بطبعه ، وان خيمت فى الأفق غيوم قاتمة من الإحن العاتية فمن قريب ستتبدد فى هوج الرياح .

على أن حديث الغراب والجرذ لم ينقطع بعد ، فقد شاء الأديب الكبير أن يجمل الحجة للغراب فى مطلبه ، فيذكر على لسانه من الحكم الغالية ما يستنزل به العصم من معاقلها الشم ، كأن يقول للجرذ « لا تصعب على الأمر بقولك ليس إلى التواصل بيننا من سبيل ، فان العقلاء الكرام لا يبخلون على المعروف جزاء ، والمودة بين الصالحين سريع اتصالها بطىء انقطاعها ، ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب ، بطىء الانكسار سريع الإعادة ، هين الاصلاح إن أصابه ثلم أو كسر ، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطىء اتصالها ومثل ذلك مثل الكوز من الفخار ، سريع الانكسار ينكسر من أدنى عيب ، ولا وصل له أبدا . والكريم يود الكريم ، واللئيم لا يود أحداً الا عن رغبة أو رهبة » ثم تنتهى القصة المتعة بمصادقة الغراب والجرذ ، وتعاونهما على النوائب فى الحياة ، تعاونا يصل بهما شاطىء السعادة المنيفة . وإذن فقد بلغ الكاتب ما يريده ، حيث صور أولا ما ينبغى بادىء الأمر من الحيطة والانتقاد ، وكشف ثانيا عن خطأ ما يتوهمه الناس فى أعدائهم المتناحرين ، إذ أن من السهل الهين على هؤلاء أن يصبحوا بقليل من الكياسة ، أحبة متوادين كأحسن ما يكون !!

(البقية فى العدد القادم)

محمد رجب البيومي

الادارة الهندسية القروية بأسوان

تقبل العطاءات لغاية ظهر الخميس ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٤٨ عن عملية إنشاء دورتى مياه مسجد الحاج محمد إبراهيم النقيب بناحية دراو مركز كوم امبو ومسجد نجم الفورة الفوقانية بناحية الرديسية بحرى مركز ادفو وتطلب نماذج العطاءات من الإدارة الهندسية بأسوان نظير مبلغ خمسمائة مليم على ورقة مدموغة فئة الثلاثين مليما بخلاف مائة مليم للبريد والاطلاع على الرسومات مجاناً بالإدارة بأسوان .

٧٧٧